مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
العدد التاسع – جوان 2018

.OEB Univ. Publish. Co

التواصل الثقافي بين الإيالات المغاربية العثمانية

The cultural communication between the ottoman maghrebian states

د. سالم بوتدارة، جامعة أم البواقي، الجزائر
salem2900@gmail.com

تاريخ التسليم:(2018/02/18)، تاريخ التقييم:(2018/03/06)، تاريخ القبول:(2018/05/01)

ملخص :

يعتبر عامل الجوار بين أقطار الإيالات المغاربية العثمانية الثلاث الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، عنصرا هاما في بلوَرت علاقات متعددة بين هذه الإيالات، أدّت هذه العلاقات إلى فسح المجال أمام تمتين أواصر التواصل الثقافي، وإرساء ثقافة مغاربية قوامها الوحدة الدينية المذهبية وتقارب مناهج التعليم والثقافة، وصانعها هم العلماء وطلبة العلم بتنقلاتهم بين حواضر الإيالات وزواياها التعليمية، وما ألِفوه من مناظرات ومحاورات علمية، وما تعوّدوا عليه من السعي في طلب الإجازات.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى رصد جذور تلك العلاقات الثقافية وتتبع مسارها وتجلياتها خلال الفترة العثمانية من تاريخ الإيالات المغاربية، والوقوف على أهم أعلامها ورموزها.

الكلمات المفتاحية:الحكم العثماني، الرحلات، العلاقات الثقافية.

Abstract :

The fact of being neighbors is considered a significant factor that helped the three ottoman countries, Algeria, Tunisia and Tripoli of the West, develop several relationships between each other. These relationships created a connected cultural contact and a united maghrebian culture on the basis of a shared religious doctrine and educational programs. Scholars and students themselves had a great role in the creation of this cultural contact through their journeys, dialogues and scientific debates.

This research paper aims at observing the roots of these cultural relationships and keeping track of its traces during the ottoman period in the maghrebian states' history. Also, it spots the light on its significant scholars and figures.

Keywords: Ottoman Reign, Journeys, Cultural relationships.

مقدمة:

بلغت حواضر الإيالات المغاربية في العهد العثماني مرتبة علمية لا تقل عن مراتب الحواضر الكبرى بشمال إفريقيا كفاس والقاهرة، فمن المظاهر الدالة على الحركة العلمية الحاصلة بالولايات المغاربية العثمانية وحيويتها شيوع ظاهرة التّرحال العلمي، التي حملت بين طيّاتها فوائد جمّة تجاوزت الغرض المباشر لها المتمثل في التواصل الثقافي، حيث أنها أدّت إلى تبلور صور أخرى لذلك التواصل تجسدت في المحاورات والمناظرات والمراسلات ما بين علماء الإيالات الثلاث، فتعددت بذلك أسبابها ومضامينها وشكّلت مناخا مميزا سادته الأدلّة الدّامغة والقرائن الجليّة، مما مكن تلك الحركية الثقافية من تجاوز الحدود الجغرافية لكل إيالة، وتداخلت في كثير من معطياتها مع حواضر الإيالات المجاورة تأثيرا وتأثّرا، فتوطدت العلاقات الثقافية إثرها، ومثّل الأعلام وطلبة العلم قواسم مشتركة فيما بينها، من خلال تنقلاتهم وزياراتهم المستمرة لكبريات الحواضر العلمية كالقيروان وتلمسان وتوات وطرابلس الغرب.

والحديث عن التواصل الثقافي والعلاقات العلمية التي ربطت بين الحواضر العلمية للإيالات المغاربية، ورصد ظاهرتي التأثير والتأثر، في مجمله يجرّنا إلى استظهار العوامل المختلفة التي ساهمت في بناء هذه العلاقات وتطوراتها ولعل أهمها:

أ. **الموقع الاستراتيجي:** حيث تحتل معظم الحواضر العلمية للإيالات المغاربية موقعا هاما يعتبر همزة وصل ما بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب، حيث تمر بها الكثير من طرق القوافل التجارية وركب الحجيج والمسافرين، ولم تكن هذه القوافل بمنأى عن الاحتكاك العلمي، وخلق ظاهرتي التأثير والتأثر، مما ولّد علاقات علمية انعكست إيجابيا على الحركة العلمية والفكرية بهذه الإيالات.

ب. الرحلات: تعتبر الرحلة في طلب العلم مظهرا من مظاهر الحركة العلمية والنشاط الثقافي وهي أحد أهم الأسس التي يرتكز عليها طالب العلم لاكتساب ملكات جديدة، "فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشائخ يفيده في تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم، وطرق توصل، وتنهض قواه إلى الرسوخ، والاستحكام في المكان، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين، وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم... فالرحلة لابد منها في طلب العلم لإكساب الفوائد، والكمال بلقاء المشائخ ومباشرة الرجال".(ابن خلدون، 2001، ص614)

وعلى هذا الأساس جرت عادة العلماء في السير لأجل الاستزادة من العلم الموجود في بلده، وطلبا للعلم المفقود منه، وطلبا لعلو الأسانيد، كما أن الرحلة سبب في جلب أمهات الكتب وملأ خزائن المكتبات بنفائس المصنفات العلمية، وفيها تحصل الملاقاة بأعيان العلماء ونبهاء الطلبة، مما

يرسخ المحبة، فيتراجع العلماء في القضايا، لا على وجه التضاد بل على وجه التناصح والتحاور، وفيها يتعرف الطالب على اختلاف العادات وتنوع الأعراف، ويستفيد من مناهج العلماء في التعامل مع تلك الأعراف وهاتيك العادات، وتكسب الرحلة الطالب ملكة لتمييز قوي العلوم من ضعيفها، وما هو الأولى منها، وتعطيه قدرة على أنماط تعليمية لم تكن ببلده.

وقد كان للرحلات التي قام بها بعض ساكنة الإيالات المغاربية سواء كانت علمية أو حجية أو طلبا للرزق أثر بالغ في نسج علاقات مختلفة مع كثير من البلدان والشعوب وتعريفهم بمختلف الحواضر المغاربية وبالمسالك المؤدية إليها وكذلك بعلومها وأعلامها.

ت. طلب الإجازات العلمية: الإجازة في اللغة هي الإذن (الفيروز أبادي، 2005، 507)، وهي مصطلح علمي ابتكره علماء الإسلام في بداية عصور الرواية، كان يهدف إلى توثيق العلوم المتمثلة في ذلك الوقت بالقرآن الكريم ومرويات السنة المطهرة، ثم تطورت لتشمل الكثير من العلوم.

يحصل الباحث من خلال الإجازة على حق الرواية، أي الإذن في الرواية وبذلك يمكنه المشاركة في الساحة العلمية، وتكون الإجازة بإذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ولو لم يسمعها منه، ولو لم يقرأها عليه، وذلك بقوله أجزت لك أن تروي عني كتابي هذا أو كتاب فلان الذي حدثني به، أو ما صحّ عندك من مسموعاتي (الجزولي، محمد بن علي. *الإجازات العلمية وعناية المغاربة بها*. تم استرجاعها في 2017/11/17 منwww.alqwatan.ma/Article)

وعندما يجيز الشيخ الطالب في علم أو مجموعة من العلوم أخذها عنه، يذكر سنده في ذلك العلوم، مبينا الشيوخ الذين أخذ عنهم، متسلسلين إلى مصدرها الأول، فقد كان ذكر السند من علامات الثقة لذا أصبح العديد من طلبة العلم يقطعون الفيافي لأجل الحصول على إجازة من عالم مشهود له.

والمتتبع سير وتراجم علماء الإيالات المغاربية العثمانية وطلبة العلم، يلمس فيهم ذلك الحرص على الحصول على الإجازة بسندها، فهذا الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينيلاني يذكر أنه التقى الشيخ أبو عبد الله بن علي بن محمد بن إبراهيم الدرعي، ببلاد زاجلو، لما قفل هذا الأخير من الحج، فجالسه، واستفاد منه وقرأ عليه بعض الكتب، ثم استجازه، وطلب منه أسانيده فاعتذر بأنها في كتبه، وقد خلّفها ببلاد تيدكلت، وهو ينتظر من يقدم بها عليه، فعاد التنيلاني إلى مسكنه ولما سمع بوصولها إليه، رحل ثانية فدفعها إليه، فنقل منها ما أراده (التينيلاني، مخطوط، ص55).

ث. الزوايا والمؤسسات التعليمية: ساهمت الزوايا التي أسسها شيوخ الطرق في كل من الجزائر وتونس وليبيا، من خلال الدور الذي كانت تقوم به والوظائف المتعددة التي أنيطت بها، في مظاهر التواصل بين هاته المناطق، وهذا بفضل التعليم الذي جعلته في متناول الجميع، وبنشاط شيوخها، الذين ساهموا في نشر التصوف، والعلوم الدينية، حيث صارت قبلة للطلبة والأتباع من الجهات

الثلاث، فأصبحت لزوايا الجنوب الشرقي الجزائري صلة بزاوية نفطة والكاف القادريتين، وشكلت زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز في نفطة ملتقى إخوان الطريقة الرحمانية وملجأ للهاربين من بطش الإستعمار الفرنسي – فيما بعد– ومعقلا للمقاومة.

ج. الوحدة المذهبية: إن عموم المذهب الملكي في بلاد المغرب الإسلامي، ساعد على تبادل الآراء في القضايا والنوازل الفقهية بين أهل حواضر إيالات المغرب العربي والحواضر الأخرى، إضافة إلى أن الوحدة الدينية والمذهبية سهّلت على بعض أعلام هذه الحواضر في رحلاتهم تبوأ مقاعد للتدريس والإفتاء، كلها أسباب مهدت لهم توطيد الصلة مع مختلف الشعوب.

ح. انتشار الطرق الصوفية: عرفت الطرق الصوفية انتشارا واسعا في بلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري نتيجة الإتصال بالمشرق عن طريق الحج والرحلات، والتتلمذ على أعلام التصوف، وانتشار المؤلفات الصوفية كالرسالة القشيرية، وإحياء علوم الدين للغزالي، فظهرت ببلاد المغرب عدة طرق صوفية، انبثقت عن طريقتين أساسيتين هما الطريقة القادرية والطريقة الشاذلية.

وقد تنوع نشاط الطرق الصوفية في بلاد المغرب، فقامت بأدوار متنوعة من خلال نشاط شيوخها وزواياها المتواجدة في مختلف المناطق، حيث ساهمت بدور فاعل في التواصل بين دول المغرب العربي واستطاعت أن توطد الصلات بين سكان الإيالات المغاربية.

ومع أن الرابطة الروحية تعتبر قديمة بين بلدان المغرب الإسلامي، فهي تضرب بجذورها في عمق التاريخ، لتوافر عوامل متعددة، فإن التطورات التي عرفتها في مختلف المراحل التاريخية كان لها الأثر في تنوع مجالاتها، حيث كان للتصوف في مفهومه الطُرقي دور واضح في هذه العلاقة.

فالطرق الصوفية والمتمثلة أساسا في الطريقة القادرية والرحمانية وكذا التيجانية والشابية لعبت دورا كبيرا في التواصل بين منطقتي الجنوب الشرقي الجزائري ومنطقة الجريد، حيث عرفت هذه الطرق تباينا من حيث النشأة والنشاط وعدد الأتباع فالطريقة الرحمانية والتيجانية، نشأتا في الجزائر وانتقلتا من الجنوب الشرقي الجزائري إلى منطقة الجريد، أما الشابية فنشأت في تونس وانتقلت إلى الجزائر، وبالنسبة للطريقة القادرية فهي مشرقية النشأة كان انتقالها إلى الجزائر وتونس عن طريق الشيخ أبي مدين شعيب أثناء عودته من المشرق، ونجحت هذه الطرق في ضم عدد من الأتباع، وإنشاء الزوايا للقيام بنشاطهما الدعوي الذي يتعدى حدود الإيالة الواحدة. (Guellouz ,2010, p267)

ومن هنا اكتسبت الظاهرة الصوفية في شكلها الطرقي، أهميتها وخصوصيتها المتميزة عن طريق الإنتشار خارج الحدود الجغرافية، وبرز التصوف المغاربي كعامل موحد بين الشعوب والأقطار المغاربية، وساهمت فيه الثقافة المشتركة التي سمحت بالتواصل وتعزيز الروابط ووحدة الانتماء،

وخلق صلات روحية بين سكان الإيالات المغاربية العثمانية وأثرها في توطيد الاتجاه الوحدوي للمنطقة المغاربية.

خ. تقارب مناهج التعليم والثقافة: فإلى جانب الوحدة المذهبية نجد طرق التدريس ومناهج التلقي بين حواضر المغرب العربي والحواضر الإسلامية خاصة منها المجاورة متشابهة ومتكاملة، مما يسهل على الوافدين على المنطقة الاستيعاب في حلقاتها العلمية والفائدة نفسها بالنسبة للطلبة المغاربة عند تنقلهم إلى الحواضر العلمية الأخرى، والأمر هذا شجع كذلك العلماء والشيوخ على عقد مجالس علمية لهم خارج بلدانهم.

د. تقارب العادات والتقاليد: وذلك عن طريق التداخل العائلي والتواصل الاجتماعي، وهكذا نلاحظ تشابها كبيرا بين سكان شرق الجزائر من جهة وأهل تونس من جهة أخرى خاصة فيما يتعلق بأساليب الحياة الاقتصادية والحرَف والصناعات وغيرها من أساليب إقامة الأفراح والمناسبات، مما يشجع الطلبة والعلماء على التنقل أو الاستقرار مساهمين بذلك في تفعيل حركية المعاملات والعلاقات المختلفة بما فيها العلمية والفكرية.

وفي محاولة منا لِتبيان تلك العلاقات العلمية سنركز على العنصر الفاعل فيها وهو المشائخ والعلماء الذين صنعوها وجسدوها على أرض الواقع، إضافة إلى إبراز القضايا والمسائل التي ساهمت بدورها في خلق جو التواصل الثقافي، وأيضا إظهار طبيعة هذه العلاقات.

1: التواصل الثقافي بين إيالتي الجزائر وتونس

حظيت إيالة الجزائر بمكانة هامة في العهد العثماني، حيث وصل نفوذها وسلطانها إلى الإيالات المجاورة تونس وليبيا في عهد البايلربايات نظرا لموقعها الاستراتيجي (سعد الله، 2005، ج1، ص164)، مما أهلها لأن تكون من البلدان المعروفة آنذاك بثقلها الثقافي بحيث حملت في طياتها مختلف الفنون الثقافية التي انعكست على الحياة اليومية للفرد الجزائري.

(Raymond, 1985, p135)

وقد وصف أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن زكور علماءَ الجزائر الذين أخذ عنهم العلم وأجازوه سنة 1094هـ/ 1686م، بقوله:"... غرار أعلام، ينجلي بهم الظلام، وشموس أئمة، تنفرج بهم كل غمة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة، من رجال كالجبال، أخيار كالأقمار... فاهتديت بأنوارهم السنية"، حيث يعترف بجميع هؤلاء العلماء فيقول في حقهم بيتا شعريا جميلا:

لو لم يزد إحسانهم وجميله *** على البر من أهلي حسبتهم أهلي. (محمد بن ميمون، 1981، ص ص 52-53)

ويضيف عبد الرحمان الجامعي قولا عن الجزائر:" فهي بحمد الله إلى الآن دار الجوهر الفرد في الآداب، وعلم العقل، وتنبت العلماء الصالحين كما تنبت السماء البقل... هذه المدينة لا تخلو من

قراء نجباء، وعلماء أدباء، وأعلام خطباء، مساجدهم بالتدريس معمورة، ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة"(نور الدين، 1965، ص198)

هذه الأوصاف التي حظيت بها الجزائر وعلمائها، شوّقت طلبة العلم والعلماء من شتى الأقطار لزيارتها وطيّ الرّكب أمام علمائها، بقصد التعلم والحصول على إجازات، أو لاعتلاء منابرها، فنجد من الشيوخ التونسيين الذين حلّو بالجزائر "ابن برناز" الذي جال معظم القطر الجزائري لتحصيل العلم، حيث نزل بعنابة فأخذ عن شيخها أحمد بن الساسي ومفتيها الشيخ الصديقي، أما قسنطينة فقد نزل بها كذلك وأخذ عن مفتيها الشيخ بركات بن باديس والشيخ علي الكماد، وبعدها توجه إلى مدينة الجزائر العاصمة وأخذ عن رمضان بن مصطفى العنابي ومحمد بن سعيد قدورة وعلي بن خليل، ثم توجه إلى بلاد القبائل ودرس على يد الشيخ محمد الفاسي وأحمد عبد العظيم ومحمد بن صولة، ثم عاد إلى بلده (Abdesslem,1973, p220)

وقد زار الجزائر الشيخ تاج العارفين بن أحمد البكري العثماني لتلقي العلم على علمائها كالشيخ عيسى الثعالبي (محفوظ، 1982، ص 154)، كما حلّ كذلك بالجزائر العالمان التونسيان محمد الشافعي الباجي وأحمد الأصرم القيروانيان، اللذان رافقا محمد باي ابن الحسين التونسي سنة 1735م، وعملا على نشر العلم في الجزائر كما كانا محل ثقة لدى الحكام، وفي غالب الأحيان تتم استشارتهما في أمور الدين وشؤون الدولة، كما كانا دائما يحثان على نشر السلم بين الإيالتين. (ابن أبي الضياف، 1999، ج2، ص146)

كما ورد إلى الجزائر عدد من علماء تونس ومعهم مكتباتهم وتآليفهم ورسائلهم كإبراهيم الغرياني وحمودة عبد العزيز وإبراهيم الرياحي. (الرياحي، 1321هـ، ص 8)

أما إيالة تونس التي شكلت حاضرة علمية منذ قرون، فقد كانت محط أنظار العديد من ساكنة إيالة الجزائر، الذين نزلوا بها واستوطنوها، بل فيهم من عقب هناك بنين وحفدة، فنتج عن ذلك التواجد احتكاك ثقافي، رصدته كتب النوازل والرحلات من خلال السفر والتوجه إلى تلك البلاد، أو من خلال الإستشهاد بما ذهب إليه الأشياخ المحققون من تونس، والأمر ذاته يصدق على حاضرة إفريقية الأولى وعاصمتها التاريخية مدينة القيروان (الجنتوري، مخطوط، ص 12).غير أن العلاقات الثقافية بين حاضرة تونس وحواضر إيالة الجزائر كانت قد تأصلت منذ القرن التاسع للهجرة، حين استفتي المفتي التونسي محمد الرصاع حول قضية يهود توات الشهيرة، وكان من الذين أوصوا في مراسلاته لعلماء توات بالتسامح والاعتدال اتجاههم. كما ساهمت قوافل الحجيج التي كان يفد بعضها على تونس، عبر الطريق المحاذية لحافة الأطلس الصحراوي وجبال الأوراس في توطيد العلاقات. (برانشفيك، 1988، ج1، ص440)

فأبو العباس أحمد المقري التلمساني نظرا لمنزلته العلمية فقد ترك أثرا علميا بارزا في تونس رغم قصر مدة إقامته بها، وأهم ما يمكن ذكره في هذا الصدد هو إجازته للشيخ تاج العارفين التونسي الذي طلب منه الإجازة عند استضافته للمقري. (المقري، 2004، 153)

كما اغتنم كذلك الشيخ أبو القاسم محمد بن جمال الدين بن خلف المسراتي من منطقة القيروان فرصة لقائه بالمقري حيث طلب منه الإجازة فأجازه بمنظومة قصيرة حوت ثمانية أبيات، أقرّ المقري فيها الإذن له برواية جميع مؤلفاته ومروياته. (مخلوف، د ت، 305)

وإذا كان المقري قدم نماذج لإجازاته لأهل تونس، فإن أبا راس الناصر قد ذكر إجازات علمائها له، وأول إجازة مُنحت له كانت من طرف العالم أحمد بن عبد الله السنوسي المغربي التونسي الدار، وقد أذن له بالرواية في جميع ما يتعلق بالدين وأصوله وفروعه والمسائل الفقهية بنص إجازة نثرية أقر أبو راس أنها مكتوبة بيد خط المجيز(الناصر، 1990، ص50).

وقد رحل العالم المالكي أحمد بن عثمان بن علي بن محمد أبو العباس التلمساني إلى المشرق واستوقفه الطريق بإيالة تونس فجالس علماءها ثم واصل طريقه إلى الحج، وأثناء عودته أدركته المنية في القاهرة سنة 1738م. (نويهض، 1980، ص66).كما قام القاضي الفقيه محمد ابن عبد الرحمان التلمساني –وهو من كبار فقهاء تلمسان– برحلتين نحو المشرق خلال القرن الثامن عشر فتوقف بتونس فجالس علماءها فأخذوا عنه وأخذ عنهم. (نويهض، 1980، ص 72)

وقد توجه الشيخ محمد العنابي إلى تونس ومكث بها مدرسا للحديث النبوي الشريف، كما أجاز الكثير من تلاميذه بتونس (Abdesslem,1973, p220). أما الشيخ أحمد البوني فقد رحل إلى تونس طالبا للعلم وتضلع في علم الحديث وتوفي سنة 1726م (نويهض، 1980، ص 49). وبجامع الزيتونة كان للشيخ ابن عاشور القسنطيني حلقة يروي فيها لطلبته عجائب وغرائب أسفاره، وإلى جانب القسنطيني هاجر ابن عمار إلى تونس حيث توفر المناخ الأنسب لنشاطه الفكري وجمعته بعلمائها مناظرات، لكنه ترك تونس بسبب منافسة العلماء له ورحل إلى المشرق. (سعد الله، 2005، ج2، ص382)

وممن توطن من علماء الجزائر في تونس، العلامة أبو يوسف بن محمد (ولد عام1079 هـ/1669م) حيث تنقل من غرداية رفقة ولده الشيخ محمد المصعبي سنة 1103هـ/1692م إلى جربة وأستقر بها وأخذ العلم فيها عن الشيخ سعيد بن يحي الجادوي، والشيخ سليمان بن محمد الباروني وعمر بن علي السدويكشي (الحاج، 2007، ص82)

أما الشيخ أحمد التيجاني (1150–1230هـ/1737–1815م) شيخ الطريقة التيجانية، فقد رحل إلى تونس ومكث بها لمدة عام مدرسا بها، حيث جعلت له سرية بجامع الزيتونة وكذا بسوسة. (التيجاني، 1999، ص5)

ويورد أبو القاسم سعد الله مراسلات للشيخ عبد الكريم الفكون أجراها مع علماء تونسيون مثل القاضي إبراهيم الغرياني والعالم محمد تاج العارفين. (سعد الله، 2005، ج1، ص508)

أما الشخصيات العلمية الجزائرية التي أثْرَت الحياة الثقافية في تونس، وتركت بصماتها على الحركة الفكرية العلمية في تلك الحاضرة وأخواتها، ورعَتْ عهد الصلةِ والتواصل بينها وبين حواضر إيالة الجزائر، فقد نشطت بشكل جلي خلال القرن 12هـ مقارنة مع القرون السابقة، ومن أشهرها كلٌّ من:

- **الشيخ محمد التواتي (ت 1031هـ/1622م):** ارتحل من المغرب الأقصى إلى مدينة قسنطينة، فاشتهر بها وانتشر علمه وأقبلت إليه الطلبة وانتفعوا به، ومنهم تلميذه الشيخ عبد الكريم الفكون، نبغ في الأصول وعلم القراءات والمنطق والبيان والنحو بالأخص، وكان يبيت مكبا على القراءة، لا يرى إلا مطالعاً أو ناسخاً، ثم بدا له بعد ذلك الانتقال إلى تونس، حيث شاع خبره ووقع له القبول عند عامتها وأهل باديتها، فدرّس بمدرسة الباي أبي الحسن علي باشا، وبمدينة باجة التونسية كانت وفاته بالطاعون.

خلّف هذا العالم التواتي الرحّالة الذي جسد معاني التواصل الثقافي بن المغارب الثلاثة (الأقصى والأوسط والأدنى) تآليف قيِّمة، اعتُمد بعضها في برنامج التدريس بجامع لزيتونة، لكن معظمها لايزال مخطوطا في رفوف المكتبات التونسية والأوروبية ومنها: "غنية الراغب ومنية الطالب" و"شرح الشواهد الشعرية لمن أراد التفرس في العرُّبية "، و"الخبر في معرفة عجائب البشر" وغيرها. (الفكون، 1987، ص57)

- **الشيخ الكوش التونسي (ت ق 12هـ):** كان آدم اللون كوشاً من أهل توات، أرسله شيخه التهامي البلمحي الحسني إلى تونس نزولاً عند رغبة أهلها، فبنى زاويته بخارج باب مدينة تونس، ومنها انتشر صيته وعلا قدره، واجتمع عليه التونسيون، فلازموا السنة وتركوا البدع، وعاش حياته بين ظهرانيهم مرغوبا مطلوبا، ظهرت له كرامات وخوارق للعادات، وعين المقدّمين والأتباع في الأقطار التونسية، فلزموا صحبته حتى وافته المنية ودفن في زاويته المذكورة. (حجي، 1996، ج6، ص260)

- **الشيخ محمد العربي بن محمد التواتي (1149هـ /1736م):** انتصب للتدريس بالجامع الكبير في تونس، فأفاد وأجاد، وتخرج على يديه خلق كثير، كما تولى منصب القضاء، فكانت سمته العفة والصلاح والزهد. (جعفري، 2009، ص126)

- **الشيخ عبد العزيز الثميني (1718 -1808م):** من مواليد منطقة واد مزاب، حفظ القرآن الكريم وأخذ مبادئ العلوم في بلده وبعدها اتصل بالعالم الشيخ يحي بن صالح الأفضل من جزيرة جربة بتونس وعملا معا على إصلاح المجتمع في تلك النواحي، وعلى أثر ما قام به الشيخ الثميني

اعترف له بالإمامة العلمية ومشيخة المسجد وأصبح رئيسا للمجلس الذي كان يعتبر السلطة العليا في ميزاب كلها. (سعد الله، 2005، ج2، ص75)

ومن الشيوخ الجزائريين الآخرين الذين أشعوا بمعارفهم وعطاءاتهم الفكرية البلاد التونسية كلٌّ من: أبوعبد الله محمد التواتي (1107هـ /1696م)، محمد الصغير محمد العربي (ت بعد 1180 هـ /1766م)، الشيخ احميدة التواتي (ت بعد 1188هـ /1774م)، الشيخ محمد السنوسي (ت بعد 1194هـ /1780م). بالإضافة إلى الشيخ القاضي البكري بن عبد الكريم، الذي رحل إلى تونس في طريقه إلى الحج، وأسَّس بها زاوية عرفت باسمه، لكنه لم يلبث فيها طويلا حيث رحل عنها إلى ليبيا ثم مصر ومنها نحو البقاع المقدسة. (بكري، 2005، ص130).

2: التواصل الثقافي بين إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب

كانت الأقاليم الليبية معبرا لركب حجيج المناطق والبلدان الواقعة غربها، فهي بذلك معبر مهم لمن أراد التنقل برّاً نحو بلاد المشرق من ساكنة إيالتي الجزائر وتونس، الأمر الذي نتج عنه صلات مختلفة جمعت بين أهل الجزائر وتونس وقاطني تلك الأقاليم الليبية، ولعل العلاقات العلمية بينهم كانت أبرز تلك الصلات، حيث تنقل لنا المصادر التاريخية أنه في عام 890هـ/1485م قدِم ابن باي طرابلس، وطاف بصحراء الجزائر ومعه عشرة علماء، كل واحد منهم يحفظ مختصر خليل، وبعض أصول المذهب، وكتب ابن الحاجب، وعلم المعني والبيان، وتبعهم من علماء توات الشيخ علي بن عبد الله ومحمد بن العالم إلى بدريان. (التمنطيطي، مخطوط، ص18)

وتعتبر هذه الحادثة مؤشر لعلاقات توطدت أواصرها خلال الفترة الحديثة بتربع بعض أعلام الجزائر على كرسي التدريس هناك، كالشيخ الحسن بن محمد التواتي الذي جلس للتدريس الفقهي واللغوي بجنوب ليبيا. (فرج، 1977، 115)

ويصف الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني إقبال طلبة قرية زويلة قاعدة فزّان في القديم عليه، وذلك أثناء مروره بها في رحلته إلى الحج قائلا: " اجتمع عليّ طلبتها مع طالب من الحمر يسألون عن مسائلهم، منهم من يسأل امتحانا ومنهم من يسأل مستفيدا، ولم يقع لنا فيما قبلها". (التينيلاني، مخطوط، ص10)

ولم تكن العلاقات مع طرابس الغرب وأقاليمها تقتصر على التدريس وحده، بل تعدته إلى وُقوع مناظرات علمية بين أفراد من الطرفين، كالذي حصل مع الشيخ محمد الحسن بن محمد بن الحاج أحمد بن مالك الفلاّني الذي رحل إلى طرابلس وكانت له مع علمائها محاورات. (حاج أحمد، 2011، 212)

أما الشيخ الورثيلاني فقد حاول إصلاح ما لاحظه هناك في ليبيا من فقر المواد المدرسة في مراكز التعليم وقلة انشغال حكام طرابلس بالعلم والعلماء، فقدم مجموعة من النصائح إلى علي باشا

حاكم إيالة طرابلس الغرب محذرا إياه من التقصير في حق العلم والعلماء، حيث قال: "... فلا بد أن تجعل محلا يصل إليك جميع الناس يبثون إليك شكواهم... فلا تشتغل بشهوات النفس وتترك الناس على الإهمال... وقلت له أيضا أنك أهملت العلم وأهله، وقصرت في حقهم ما استطعت وقد فقد تدريس مدينة طرابلس بحيث لا ترى مجلسا من العلم إلا والهمة إليه من الطلبة أن يدرس من غير أمر منك ولا معونة تكون لهم من بيت المال... فرضيت أن يكون بيت المال تنتفع به وحدك ويأكله اليهود والنصارى... وأوصيته أيضا بأنك لابد أن تبني مدرسة للعلم وتحبس عليها أحباسا معلومة للعلم والمتعلم كل بحبسه، فرضي...". (الورثيلاني، 1908، ص 635)

وهكذا مثّل الشيخ الورثيلاني دورا بارزا في الصلات العلمية والعلاقات الثقافية بين إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب فقد كانت له علاقات وطيدة مع علمائها كالمفتي محمد بن مقبل، والشيخ محمد البلغيثي النوفلي، وصديقه الحميم محمد الشريف، والشيخ عبد الكريم الزواوي الذي استدل الورثيلاني بكلامه ومدحه على شرحه للوغليسية، كما اجتمع مع جماعة الفقهاء منهم الشيخ عبد العزيز الصكلاتي، وعمر السوداني، ومحمد العربي الفرجاني، وهما عضوان في المجلس الإستشاري في بلاط الباشا، ومحمد بن عثمان، والشيخ محمد بن عبد الخالق، ومصطفى الخطيب، ومحمد بن عزوز والشيخ عبد الرحمان، والشيخ عبد الرحمان المجدوب الخلادي وغيرهم كثر. (الورثيلاني، 1908، ص ص 131- 139- 173)

وفي حركية ثقافية عكسية انتقل الكثير من الأعلام الليبيين إلى الجزائر معلمين ومتعلمين لعل أغلبهم لا تزال تراجمهم مغمورة، ولعل من أشهر العلماء الذين نزلوا بالجزائر نذكر محمد بن علي الخروبي الذي لقب بنزيل الجزائر نظرا لطول إقامته بها (نور الدين، 1965، ص 190)، والشيخ من علماء المالكية والصوفية، ولد بالعاصمة الليبية طرابلس، نشأ وتعلم بها، وهو من تلاميذ الشيخ أحمد زروق، تولى الخطابة في أحد مساجد الجزائر، وخصص جهده للتأليف والدعاية لصالح الطريقة الشاذلية للدفاع عنها، وركز في مؤلفاته على الأوراد والأذكار وعلوم التصوف، خدم الخروبي الوجود العثماني في المغرب العربي، وخاصة في الجزائر، خدمة جليلة بقلمه ودرسه وطريقته الصوفية، فنال ثقة الحكام حيث كُلّف بمهمة صلح بين الجزائر والمغرب في شأن الحدود بين البلدين بعد أن هاجم السلطان محمد الشيخ تلمسان، حيث أرسله صالح باي سنة 1552م على رأس سفارة عثمانية إلى المغرب، لعقد سلام بين محمد الشيخ السعدي (سلطان المغرب) والأتراك العثمانيين في الجزائر، لتتفق معه على الحدود وتعمل على التوصل إلى التحالف بين القوتين الإسلاميتين المتجاورتين ضد الكفار (بن خروف، 1983، ص148)، من مؤلفاته ": مزيل اللبس عن أدب وأسرار القواعد الخمس " و شرح " على الصلاة المشيشية "، توفي بالجزائر عام 963 هـ. (سعد الله، 2005، ج 1، ص505)

3: التواصل الثقافي بين إيالتي تونس وطرابلس الغرب

بدأت الصلات الثقافية بين الإيالتين في فترة مبكرة، قد تكون مع دخول الإسلام للمنطقة، وظلت هذه الصلات تزداد عمقاً واستمر تواصلها وزاد نشاطها في الفترة العثمانية، فقد وُجدت بعض العوامل التي شجعت على زيادة التواصل الثقافي وعمقت الصلات بين علماء البلدين، الذين فتحوا المجال لتلقي التيارات الفكرية والثقافية المتنوعة، حيث اتخذ التواصل الثقافي بين الولايتين عدة مظاهر أبرزها رحلات العلماء وطلاب العلم، وتبادل الإجازات والكتب والاستفسارات العلمية.

وتميزت الرحلات التي كان يقوم بها العلماء وطلبة العلم من ليبيا إلى تونس أو العكس بطابعها العلمي، إذ لم يكونوا خاضعين لأي نوع من الوصايا أو التأثيرات، وإنما كانوا يقومون بهذه الرحلات بهدف الدراسة والتحصيل وتبادل الآراء والأفكار، ومن ثم العودة إلى بلادهم لنشر ما تلقوه من معارف وعلوم، والقيام بدورهم الثقافي والتعليمي المنوط بهم.

ومن الشخصيات التي جسّدت التواصل الثقافي بن البلدين محمد بن حسين الدرناوي (ت 1797 م) من درنة وهي مدينة تتبع لبنغازي، هاجر إلى تونس وحصل على إجازة من جامع الزيتونة وصار رئيساً لقلم الكُتّاب في عصر حمودة باشا سنة 1782م، ورحل كذلك محمد بن محمد الغرياني (ت 1801م) من غريان بالجبل الغربي إلى القيروان، وصار عالماً ومحدثاً في جامع عقبة، ثم رجع إلى ليبيا في زمن علي القرمانلي، وعاد إلى القيروان أثناء حوادث علي برغل، وتخرج على يديه العديد من مشايخ ليبيا وتونس، كما حصل محمد بن أحمد الطويبي (ت 1803 م) من الطويبية، غرب طرابلس، على الإجازة من الزيتونة، وتولى القضاء في الحاضرة في عصر حمودة باشا، أما محمد بن أحمد بن عثمان الحضيري (ت1813م) فقد تتلمذ على يد الشيخ محمد بن غلبون الحفيد، وحصل منه على إجازة، وارتحل إلى تونس، علّم وتعلم بها، ثم جلس للتدريس في زاوية طيبة. (غلبون، 1990، ص16)

وقد كانت الإجازات العلمية محفزا للتواصل العلمي بين تونس وطرابلس الغرب، ومن ذلك إجازة الشيخ إبراهيم الرياحي بجامع الزيتونة للشيخ حسين بن محمد بن عبد الكريم الأنصاري الطرابلسي المتوفي سنة 1881م، وإجازة شيخ الإسلام مفتي الديار التونسية الشيخ أحمد بن الخوجة لمحمد كامل بن مصطفي بجميع مروياته، وإجازة الشيخ أحمد بن علي بن عبد الصادق الجبالي الطرابلسي لأحمد بن الصغير السوكنى التونسي في سنة 1764م. (الزاوي، 2004، ص74)

ولم تقتصر الحركة الثقافية بين تونس وطرابلس الغرب على تبادل الإجازات ومنحها، بل كان التفاعل الثقافي بينهما نشطاً، وهو ما يؤكده تبادل الرسائل العلمية وما تؤكده تلك المؤلفات التي يقع تأليفها إجابة عن سؤال أو أكثر تردد من هذا العالم أو ذاك، أو تكون تعليقاً على تأليف سابق، ومثال ذلك الرسالة التي أرسلها أهل جربة إلى علماء طرابلس في آواخر القرن الثامن عشر يسألون عن

مسائل شرعية وأحوال دينية، وقد ساهم أحمد بن عبد الدائم الأنصاري الطرابلسي واشترك في الجواب الشرعي في أبيات نظمها وأرسلها بصورة جواب إلى أهل جربه. (عفيفي، 1957، ص154)

بالإضافة إلى ذلك كان تبادل الكتب والمؤلفات العلمية بين العلماء والشيوخ والفقهاء من أبرز مجالات التواصل الثقافي بين الإيالتين، حيث أصبحت مكتبات البلدين تزخر بالعديد من النسخ المتعددة لبعض الكتب المتداولة في مختلف العلوم هنا وهناك، لمؤلفين عاشوا في ولاية طرابلس الغرب أو في تونس، وأخرى لغيرهم ولكنها معتمدة في التدريس والفُتيا في الولايتين، وقد كان اقتناء الكتب شيئاً مألوفاً بين علماء الإيالتين، حيث كان بالبلدين العديد من المكتبات الزاخرة بأنواع الكتب، وخصوصاً في المؤسسات العلمية الكبرى كجامع الزيتونة وغيره، وقد وصلت مؤلفات العلماء التونسيين إلى طرابلس وذاع صيتها، فيما وصلت مؤلفات علماء طرابلس إلى تونس واشتهر أمرها، هذا فضلاً عن انتشار المكتبات في مختلف مدن الولايتين كمكتبات جامع الزيتونة، جامع عقبة بالقيروان، رباط سوسه، رباط المنستير، بيت الحكمة برقادة، الصادقية بولاية تونس، ومكتبات الكاتب، الزاوية الأسمرية، الزروق، آل منيع، ضوي، زاوية أبي ماضي بولاية طرابلس الغرب. وقد وُجدت الكتب التونسية بالمكتبات الليبية، كما حوت المكتبات التونسية مؤلفات علماء طرابلس الغرب. (المصراتي، 1986، ص22)

خاتمة:

وخلاصة ما سبق فإن النشاط العلمي كان أحد أهم مظاهر التواصل بين الإيالات المغاربية في العهد العثماني، فقد ساهمت الرحلات في تدعيم العلاقات العلمية، حيث أعطتها نفسا جديدا، وذلك بتطوير المناهج والأساليب الدراسية، وتوسيع علاقات علماء الإيالات الثلاث فيما بينهم، ووصْل علومهم بأسانيد ومرجعيات راسخة عن ثقات الأمة ورجالها، نتج عن ذلك إجازات علمية مُنحت لهم في حواضر البلدان الأخرى من غير حواضر بلدانهم.

وقد كان لركْب الحجيج دور فعّال في إعطاء مزيد من التواصل والاحتكاك بين العلماء والطلبة، مثّلت محطات التوقف فيه فضاء واسع لهذا الاحتكاك.

كما مثّلت المحاورات والمناظرات العلمية سبيلا للتواصل الفكري بين علماء الإيالات الثلاث فيما بينهم، ووسيلة إلى توحيد الأفهام والاجتهادات، لتجسّد دورا مهما تمثل في إخراج العلوم من دائرة التلقين والتلقّي إلى دائرة النقاش والبحث.

قائمة المراجع:

أولا – المراجع باللغة العربية:

– ابن أبي الضياف، أحمد.(1999)، *إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان*، تونس: الدار العربية للنشر.

– ابن خلدون، عبد الرحمان.(2001)، *العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، تح: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر.

– برانشفيك، روبار.(1988)، *تاريخ أفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى غاية القرن 15م*، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

– بكري، عبد الحميد.(2005)، *النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14هـ*، ط1، عين مليلة: دار الهدى.

– بن خروف، عمار.(1983)، *العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10 هـ/ 16 م*، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة دمشق.

– بن ميمون، محمد.(1981)، *التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية*، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

– التمنطيطي، محمد بن عبد الكريم. (د.ت)، *درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام*، مخطوط بخزانة الشيخ عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار، الجزائر.

– التيجاني، سالم بن حبيب.(د.ت)، *نبذة تاريخية عن حياة سيدي أحمد التيجاني الأشعري المالكي (1737– 1815م)*، د.ن.

– التينيلاني، عبد الرحمان.(د.ت)، *رحلة حجية لعام 1188هـ*، مخطوط بخزانة باعبد الله، أدرار، الجزائر.

– الجزولي، محمد بن علي اليلو.(2016/05/12)، *الإجازات العلمية وعناية المغاربة بها*، تم استرجاعها في تاريخ 2017/11/17، من www.alqwatan.ma/Articl.

– جعفري، أحمد. (2009/04/15/14)، *العلاقات الفكرية والثقافية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي*، مقال قدم إلى ملتقى العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، جامعة أدرار.

– الجنتوري، عبد الرحمان. (د.ت)، *نوازل الجنتوري*، مخطوط بخزانة الصوفي، أدرار، الجزائر.

حاج أحمد، الصديق. (2011)، *التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ*، ط 2، الجزائر: منشورات الحبر.

– الحاج، يوسف بن بكر.(2007)، *تاريخ بني ميزاب– دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية*، د.ط، الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش.

– حجي، محمد.(1996)، *موسوعة أعلام المغرب*، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

– الرياحي، عمر بن محمد بن علي. (1321هـ)، *تعطير النواحي بترجمة الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي*، ط1، تونس: مطبعة بكار وشركائه.

– الزاوي، علي الطاهر أحمد.(2004)، *أعلام من ليبيا*، ط3، بنغازي: دار المدار الإسلامي.

– سعد الله، أبو القاسم.(2005)، *تاريخ الجزائر الثقافي*، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

– عفيفي، محمد الصادق.(1957)، *الشعر والشعراء في ليبيا*، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

– غلبون، محمد بن خليل.(1349هـ)، *التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار*، تصحيح وتعليق: الطاهر احمد الزاوي، القاهرة: المطبعة السلفية.

– فرج، محمود فرج.(1977)، *إقليم توات خلال القرنيين 18 و19م*، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

– الفكون، عبد الكريم.(1987)، *منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية*، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

– الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. (2005)، *القاموس المحيط*، تح: مكتبة تحقيق التراث، لبنان: مؤسسة الرسالة.

– محفوظ، محمد.(1982)، *تراجم المؤلفين التونسيين*، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

– مخلوف، محمد. (د.ت)، *شجرة النور الزكية في طبقات المالكية*، بيروت: دار صادر.

– المصراتي، علي مصطفى.(1986)، *أعلام من طرابلس*، ط4، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر.

– المقري، أحمد.(2004)، *رحلة على المشرق والمغرب*، تحقيق أحمد بن معمر، الجزائر: مكتبة الرشاد.

– الناصر، محمد أبو راس.(1990)، *فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته*، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

– نور الدين، عبد القادر.(1965)، *صفحات في تاريخ الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي*، قسنطينة: مطبعة دار البعث.

– نويهض، عادل.(1980)، *معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر*، ط2، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.

– الورثيلاني، حسين.(1908)، *نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار*، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر: مطبعة بيار فونتان.

ثانيا – المراجع باللغة الأجنبية:

- Abdesslem, Ahmed. (1973), Les historiens tunisiens des 17 – 18 et 19éme siècle, Tunis : Librairie klincksieck.

- Guellouz, Azzedine. (2010), Histoire générale de la Tunisie, Les temps modernes (941-1247 H/ 1534- 1881), Tunis : Sud Editions.

-Raymond, A. (1985), Grands ville Arabes à L'époque Ottomane, paris : Ernest Leroux.